في مواجهة العدوان: دور الفكر الإسلامي

21-2-2005

إن الفكر الإسلامي مطالب اليوم بمراجعة شاملة تعمل على بناء إطار استراتيجي يستند على فلسفة النهوض والتحرر الإسلامي، ويستمد عونه من الخبرة الإسلامية المكتنزة بالمفكرين الذين قادوا مجتمعاتهم لمواجهة التحديات والعدوان كشيخ الإسلام أبن تيمية والعز بن عبد السلام، وبالتأكيد فإن الجانب الأخطر الذي نؤتى من قبله هذه الفترة وفي المستقبل هو الجانب الفكري والثقافي، وهو الذي يهدم الحصون من الداخل قبل أن تهدمها جيوش الأعداء من الخارج!.

بقلم محمد سليمان

ازداد الحديث في الفترة الأخيرة عما يسمى بحرب الأفكار أو السيطرة على العقل، خاصة منذ إشارة وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد إلى ذلك وإعلانه أن على الولايات المتحدة كي تكسب الحرب على الإرهاب يجب أن تكسب حرب الأفكار.

وتكمن خطورة حرب الأفكار في أنها تهدف إلى إخضاع الإنسان من خلال السيطرة على تفكيره والوصول به إلى النتائج التي يريدها الخصم دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية أو باستخدام الحد الأدنى منها، وإنما من خلال بناء إدراكات وإيحاءات لديه توصله إلى مرحلة التسليم لإرادة الآخر والقبول بها وكأنها الحل الأمثل.

ويأتي مفهوم حرب الأفكار استمرارا لما سمي بالحرب الباردة الثقافية التي شنتها الولايات المتحدة على المعسكر الاشتراكي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، من خلال الترويج للسلع الفكرية والثقافية الأمريكية التي تمجد النموذج الغربي وتزينه في عقول الطرف الآخر فيصبح هذا النموذج هو المثل الأعلى الذي يجب أن يطمع الإنسان في الوصول إليه، والحلم الذي يراود الجميع في أنحاء العالم ؛ ولعل الأعداد الكبيرة من البشر في كثير من دول العالم التي تتقدم بطلب الفيزا للسفر أو الهجرة للولايات المتحدة مثالا بارزا على الحلم الأمريكي

الذي استطاع أن يسيطر على عقول الكثيرين ، وربما الرموز الثقافية والاقتصادية الأمريكية المنتشرة في أغلب المجتمعات الإنسانية اليوم مثالا آخر أيضا .

بيد أن الحرب الثقافية الأمريكية على العالم الإسلامي هذه المرة لا تقف عند حدود الترويج للنموذج الأمريكي واكتساب العقول والقلوب المؤمنة به، وإنما أيضا في تسويق تفوق الولايات المتحدة وقوتها وعدم جدوى مقاومتها أو الوقوف في وجهها، ويظهر هذا الأمر بمنتهى الوضوح من خلال احتلال العراق وإلقاء القبض على القادة العراقيين، وتهافت كثير من الدول المعارضة للولايات المتحدة إلى تقديم التنازلات إرضاء لها خاصة – بعد احتلال العراق - .

من هنا فإن النظر إلى الاحتلال الأمريكي للعراق يجب أن يتم من خلال الرؤية الشمولية التي تأخذ بعين الأبعاد المتعددة لهذا المشروع وفي مقدمتها البعد الثقافي ..

فلقد وجه الساسة والمخططون الأمريكيون جهودا كبيرة على هذا الصعيد، كما أجريت عملية مراجعة شاملة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، ووضعت استراتيجيات ثقافية تعمل على تحقيق أهداف المشروع الأمريكي إما من خلال الترغيب والترويج للسلع الثقافية ونمط الحياة الأمريكي، أو من خلال الترهيب من حجم القدرات الأمريكية عسكريا وأمنيا . ومن ضمن الآليات التي استخدمها الأمريكيون: ما يسمى بالدبلوماسية الأهلية والتواصل مع المثقفين والمفكرين في العالم الإسلامي وبناء المراكز الثقافية، وأيضا وسائل الإعلام ويبرز في هذا السياق راديو "سوا" وفضائية "على الهوى سوا" وكلها تعمل على الترويج للنموذج الأمريكي في المجتمعات المسلمة وبالتحديد لدى عنصر الشباب ومن خلال مخاطبتهم

بلغة الشهوة واللذة والغريزة.

ومما يزيد من التأثير الثقافي والفكري للمشروع الأمريكي في العالم الإسلامي التحولات الاقتصادية الكبرى الجارية فيه وانتشار النمط الاستهلاكي الرأسمالي مع مشاريع الخصخصة البنيوية التي تقوم بها العديد من الدول والتي يصاحبها في الأغلب الأعم تحولات ثقافية واجتماعية مفصلية، مرتبطة بتغير دور الدولة وبالوضع الاقتصادي للفئات الاجتماعية وطبيعة سوق العمل ونمط الثقافة الذي يتطلبه السوق والقائم على سيادة قيم الربح ورأس المال ، كما يصوغ ذلك " ستيوارت هول " بقوله : " تقوم الخصخصة بتغيير البنية التي كانت قائمة على علاقة التضاد ، وخلاصتها : " هو " مقابل " أنا " وتضع بدلا منها معادلة جديدة ، تكون الأطراف فيها متكافئة وليست متضادة لتصبح : " هو + أنا = نحن " . ثم تضع الخصخصة " نحن الجديدة " أي " الشعب " في علاقة خاصة مع رأس المال ، وهي أن يكون الشعب خلف رأس المال ، خاضعا لمستلزماته (كالربحية والتراكمية). ولكن في الوقت ذاته يبقى الشعب مرتبطا برأس المال ومندمجا معه " .

الملاحظات السابقة تقودنا إلى بيت القصيد في هذا المقال : وهو الجانب الفكري في مواجهة المشروع الأمريكي واستحقاقاته ، وإذا كان الحديث اليوم في أغلبه عن المناطق المشتعلة : العراق وفلسطين ، فإن المسألة الرئيسة الآن والخطيرة جدا هي غياب السند الفكري الحقيقي للمقاومة والانتفاضة ، وظهورهما وكأنهما نتوءا معزولا ولحنا شاذا غريبا خارج إطار سنفونية الرضوخ والخضوع العربي . أما المؤتمرات والصيحات العالية من قبل فئات وأحزاب وقوى شعبية عربية فلا وزن ولا قيمة لها على الإطلاق إن لم ترتبط بصوغ استراتيجية

ثقافية حقيقية ذات آليات محددة تعمل على بناء الفكر الإسلامي الحضاري والمقاوم الذي يناصر المقاومة ويقدم لها الإطار الفكري المستمد من قيم وروح الإسلام والهوية الحضارية ، ويعمل على تحصين الشعوب فكريا وثقافيا من براثن الفكر الأمريكي الذي يعلي من شأن قيم النفعية والاستهلاك.

ويؤكد ضرورة قيام الفكر الإسلامي اليوم بمهامه في تحصين جبهات الأمة داخليا وخارجيا وجود نفر من بني جلدتنا ممن يتحدثون بألسنتنا - تعرفهم في لحن القول - وهم يروجون للنموذج الأمريكي وما يتضمنه من مفاهيم ويستند إليه من قيم وفلسفة من جهة ، أو وهم يدعون إلى الواقعية والرضوخ للهيمنة الأمريكية والمارد الأمريكي ولموازين القوى من جهة أخرى .

إن الفكر الإسلامي مطالب اليوم بمراجعة شاملة تعمل على بناء إطار استراتيجي يستند على فلسفة النهوض والتحرر الإسلامي، ويستمد عونه من الخبرة الإسلامية المكتنزة بالمفكرين الذين قادوا مجتمعاتهم لمواجهة التحديات والعدوان كشيخ الإسلام أبن تيمية والعز بن عبد السلام، وبالتأكيد فإن الجانب الأخطر الذي نؤتى من قبله هذه الفترة وفي المستقبل هو الجانب الفكري والثقافي، وهو الذي يهدم الحصون من الداخل قبل أن تهدمها جيوش الأعداء من الخارج!.